حولي؟ توقعت استجواباً عسيراً عن سبب وجودي في الدار، فتسلحت بساق احد المقاعد، متحيناً اللحظة المناسبة لأهوي بالخشبة على رأس هذا الدخيل.

على اني رأيته يدفع الغانية جانباً بكل خشونة ويتقدم مني، ثم يرتد خطوة خطوة ليصيح مشدوهاً:

- آه ياسينور! أأنت هو اذن؟

تطلعت اليه، فعرفته. لقد كان (دون خوزيه) بلحمه وعظمه. واذ ذاك ادركني شيء من الاسف لانقاذي رأسه من حبل المشنقة. لكني تضاحكت وقلت بنعومة:

- آه أأنت هو؟ انك اوقفت عمل الانسة وقد كادت تكشف لي عن ادق الاسرار.

اجاب وهو يصر باسنانه ويرشق «كارمن» بنظرة صاعقة:

- تلك هي الحال دائماً! لأضعَنّ حداً نهائياً لكل هذا!

لكن الغجرية واصلت حديثها معه باللغة عينها. واخذت تزداد هياجاً وندفاعاً كلما مضت، وآضت عيناها مخيفتين وغشيهما الدم، وتشنجت عضلات وجهها، واخذت تضرب الارض بقدمها. خيل لي انها كانت تحثه على القيام بعمل يأباه ويكرهه، وفهمت مدار الحديث عندما رأيتها تمر بيدها الصغيرة على عنقها تحت ذقنها، مستنتجاً ان العنق التي ثار الجدل حول حزها ليست غير عنقي.

لم يجب «دون خوزيه» على هذا السيل الجارف من الكلام الا

بعبارتين او ثلاث، نطقها بلهجة عنيفة جازمة. وهنا رشقته الغجرية بنظرة تنطوي على عظيم احتقار. ثم جلست متربعة في احدى زوايا الغرفة متشاغلة بتقشير برتقالة واكلها.

جذبني «دون خوزيه» من ساعدي وقادني عبر الباب الى الشارع. فسرنا زهاء مائتي خطوة والصمت ثالثنا ثم ما لبث ان تخلى عن ساعدي وقال:

- سر قِدماً ولاتنحرف حتى تصل الجسر.

ثم استدار على عقبيه عائداً من حيث اتى بخطى واسعة.

عدت الى فندقي يتنازعني عاملان: بعض خجل مع هياج عصبي شديد زاد من حدته اكتشافي ضياع ساعتي وانا اخلع ثيابي. وفي اليوم التالي ألهتني مشاغل عدة عن البحث او اخبار الشرطة فنسيتها. ثم اني استوفيت مطلبي من مخطوط الدومنيكان وشددت الرحال الى اشبيلية وبعد ان تجولت بضعة اشهر في اندلوسيا، صبت نفسي الى مدريد ولم يكن لي مندوحة من المرور بقرطبة فنزلتها وانا خالي الذهن من نية البقاء فيها طويلاً، فقد امتلأت نفسي بغضة بهذه المدينة وبحوريات الوادي الكبير. لكن الزيارات الواجبة لاصدقائي وبعض المهام والوصايا التي كلفت بتنفيذها، اخرتني ثلاثة ايام او اربعة في عاصمة ملوك المسلمين الغابرين.

ما ان لاح خيالي في دير الدومنيكان، الا واقبل علي كاهن كان قد اظهر اهتماماً عظيماً بتنقيباتي عن موقع «موندا» هاشاً باشاً مفتوح الذراعين. ولما صرنا وحيدين ابتدرني بقول:

- الحمد لله! مرحباً يا صديقي العزيز. لم نصدق انك في قيد الحياة. وانا الذي يكلمك الان صليت على روحك «ابانا» و «السلام»[١٤] عدة مرات، ولست بآسف على ذلك بعد ان رأيتك سالماً. قيل لنا ان اللصوص هاجموك وسلبوك.

اجبت بدهشة غير قليلة: «ماذا تعني؟»

- لا ريب وانك تتذكر.. الساعة الجميلة، الساعة التي كنت تنصبها فتدق في المكتبة كلما سألناك عن موعد اداء الفرائض، ابشر بها، انها استعيدت وسترد اليك.

فقاطعته بقولي: «معنى ذلك اني اضعتها».

- انه ذلكم الوغد، رهين المحبس الان. فالمعروف عنه انه لايتورع عن قتل اي مسيحي لقاء «صلدي» واحد. ولقد خشينا انه اعتدى على حياتك. ساصحبك الان الى حاكم المنطقة لتسترد ساعتك ولك ان تحكم بعدئذ عن سير العدالة والامن في اسبانيا.

قلت:

- اني افضل ان افقد ساعتي على اداء شهادة قد تؤدي بحياة

١٤- هما دعاءان اولهما اسمه الصلاة الربّية والثاني يسمى بتسبحة العذراء.

اي لص بائس، وخصوصاً لان..

- اوه، فلتكن مطمئنا، فالادلة ثابتة وقوية، وشهادتك لن تستطيع شنقه مرتين. على اني اخطئ باستعمال لفظة «الشنق» هنا. لانه «هيدالكو hidalgo»[١٥] لذلك سيقطع رأسه[١٦]. وسينفذ الحكم فيه بعد غد حتماً. ان السرقة كما ترى- لاتأثير لها في الموضوع، فقد ارتكب جرائم قتل عدة الواحدة اشنع من الاخرى.

- وما اسمه؟

- يعرف هنا باسم (خوزيه نافارو) لكن اسمه الباسكي الاصلي صعب النطق ولو اجتمع كلانا لما افلحنا في تهجئته، والحق يقال انه شخص يسوى المشاهدة، فلا تدع الفرصة تفلت من يديك انت الذي تدور باحثاً عن غرائب هذه البلاد، اذهب اليه، وانظر كيف يودع القتلة المجرمون في اسبانيا، دنياهم. انه الان في المعبد[١٧] وسيرشدك اليه الاب «مارتنز».

اذعنت لالحاح الكاهن الدومينيكي في طلبه مني مشاهدة

١٥- هيكو دالكو بالاسبانية يعني «سليل شرف» او «ابن شيء مذكور».
١٦- كان قطع الراس امتيازاً يمنحه القانون الاسباني للنبلاء حتى العام ١٨٣٠ اما الان فينطبق على سائر المجرمين نظراً الى القانون الجديد(المؤلف).
١٧- في كل سجن اسباني يوجد بيعة صغيرة «كاپيلا» يوضع بها المحكومون بالموت لسيتعدوا روحياً ويتزودوا بالاسرار المقدسة قبل التنفيذ(المؤلف)

«الاستعداد الروحي الاخير لمحكوم بالموت» فاخذت سمتي الى السجن ومعي مقدار من لفافات التبغ، كحجة اتعلل بها لزيارته واعتذر له عن تطفلي.

ادخلونا على دون خوزيه وكان يتناول طعامه، فحياني ببرود وشكرني بادب على هديتي. تناول صندوق اللفافات، واحصى ما فيه متخيراً بعضها، ثم رد الي الباقي قائلاً انه لن يحتاج الى اكثر من ذلك.

واستفسرت عما اذا كنت استطيع التخفيف من المصير الذي ينتظره بالمال او بنفوذ الاصدقاء، فهز كتفيه سلباً اول الامر وارتسمت على وجهه ابتسامة كئيبة، ثم بدت عليه علائم التفكّر في كلامي، واخيراً رجا مني ان اوصي «بقداس» يقام في سبيل خلاص نفسه، ثم اضاف متردداً:

- هلا .. هلا اوصيت بقداس ثان لاجل روح امرأة اساءت اليك؟

فاجبته:

- سأفعل بالتأكيد لكني لا اذكر اساءة قابلتني بها امرأة ممن عرفتهن في هذه البلاد.

فقبض على يدي وهزها باحترام عميق، وبعد فترة من الصمت استطرد قائلاً:

- اتسمح لي بمنة؟ ربما مررت بمقاطعة النافار وانت في طريق الى بلاد لابد وانك ستصلهامن «فيتوريا» التي لاتبعد عنها

كثيراً.

قلت:

- اجل، سأمر من «فيتوريا» بالطبع، وربما عرجت على «پامپلونا» سأقوم بهذه الرحلة لاجلك.

- لو انك ذهبت الى «پامپلونا فستجد ثم، اشياء كثيرة تسترعي اهتمامك، انها مدينة جميلة.. اليك بهذا النوط.

قال هذا وناولني نوطاً فضياً كان يتدلى من عنقه بسلسلة واستطرد:

- لفه بقطعة من الورق (ثم توقف ليسيطر على اعصابه) واحمله او ارسله الى امرأة صالحة سأخبرك بعنوانها. قل لها اني تحت اطباق الثرى. لكن لا تعلمها بكيفية موتي.

وعدته بتنفيذ وصاياه جميعاً. وفي اليوم التالي زرته وقضيت معه ردحاً من الزمن فسمعت منه هذه المأساة التي سأقصها عليك فيما يلي.

الفصل الثالث

قال:

- ولدت في «الزندو» من عمال وادي «بازتان» واسمي «دون خوزيه ليزارا بنكوا» وانك ياسيدي تعرف اسبانيا بحيث لايمكنك ان تشك في اني من اقليم «الباسك» اي من اتباع الدين المسيحي القديم. وان انا لقبت نفسي «بالدون» فلي فيه ملء الحق، ولو كنا في (اليزندو) لاريتك شجرة نسبي على الرق. نذرت للبيعة، واجبرت على الدراسة استعداداً للكهنوت، لكن لم اجن فائدة منها، كنت اعشق لعبة «البوم[١٨] Paum» فكانت سبب خرابي. عندما نلعبها نحن النافاريين، ننسى كل شيء. ففي يوم ما، فزت على شاب من «آلافا» فتحرش بي ونشب بيننا عراك وفزع كل منا الى «دبوسه Maquilas»[١٩] نتبارز، فتغلبت عليه ايضاً، لكنني اضطررت الى مغادرة البلاد، وقادني طالعي الى لقاء بعض فرسان الدرك، فتطوعت في كتيبة لهم مرابطة قرب «المانزا» وكان رجالنا المنحدرون من

١٨- وهي التنس
١٩- عصا ملبسة بالحديد.

الجبال اسبق الى اتقان صناعة الحرب فلم يمر علي طويل زمن حتى رقيت عريفاً، وفي الوقت الذي كنت بانتظار ترقيتي الى رئيس عرفاء، عينت لسوء حظي حارساً لمصنع تبغ في اشبيلية.

ان كنت تعرف اشبيلية، فلابد وانك تذكر تلك البناية الشاهقة خارج سور المدينة قرب نهر «الوادي الكبير» ما زلت اتذكر الباب ومركز الحراسة المجاور. عندما يكون الاسبان عاطلين فاما يتشاغلون بلعب الورق، واما ينامون. اما انا- النافاري، فلا اجاريهم كنت على الدوام اشغل نفسي بعمل ما. وفي احد الايام كنت اصنع سلسلة لزناد بندقيتي من سلك نحاس، واذا برفاقي يتنادون فجأة:

- الناقوس يقرع، لقد عادت الفتيات الى العمل.

لابد وانك تعلم ياسيدي ان عدد العاملات المستخدمات في المصنع يربو على الاربعمائة او الخمسمائة، تحتويهن قاعة رحيبة وهناك يصنعن لفافات التبغ ولايسمح للرجال بالدخول عليهن الا باذن «القسم الرابع والعشرين»[٢٠] ذلك لان بعضهن، والصبايا على الاخص، يخلعن ثيابهن ايام القيظ. وعندما يأتين الى المصنع، يعترض سبيلهن كثير من الشبان.

انهن من كل جنسية وصنف، لكن يندر من ترفض منهن وشاحاً حريرياً. وليس على هواة هذه «اللعبة» الا بعض الصبر

٢٠- حاكم البلد ومدير شرطتها (المؤلف)

لنوال الثمن. وبينما يواصل هؤلاء الغرانيق مغازلاتهن، كنت اتم قاعداً على ضفة قريبة من الباب. كنت وقتذك شاباً في ميعة الصبا، احن شوقاً الى بلادي، ولا اجد من هن اجمل من الصبيات ذوات الثياب الزرقاء والضفائر التي تنوس على الاكتاف[٢١] ثم اني كنت اخشى الاندلوسيات كثيراً، اذ لم اعتد طباعهن، فهن هازلات لعوبات لايلفظن كلمة رزينة صادقة قط. قلت اني كنت مشغولاً بصنع سلسلتي واذا بي اسمع نداء احدهم:

- ها هي ذي «الخيتانيللا»[٢٢] مقبلة!

فرفعت بصري وابصرتها. كان اليوم يوم جمعة ولن انساه ما حييت. رأيت «كارمن» التي فاجأتها معك قبل بضعة اشهر. كانت يومئذ ترتدي ثوباً قصيراً جداً يظهر جوارباً حريرياً ابيض مملوءً بالثقوب، وتنتعل حذاء صغيراً من الجلد المراكشي الاحمر شد الى قدميها بشريط قرمزي. كانت قد اسقطت ملاءتها لتعرض كتفيها وباقة كبيرة من الاقاحي وسط صدرها وقد ركزت في زاوية فمها زهرة واحدة من تلك الباقة، اقبلت تتهادى وتتوثب كالمهرة الاصيلة الخارجة من افضل سلالة جياد قرطبية. لو ان امرأة ظهرت في بلادنا بهذا الزي الفاضح لاستعاذ بالله كل من لقيها ورسم علامة الصليب على صدره. اما في اشبيلية فمن يلقاها يخف الى اطراء محاسنها واغراقها بسيل من كلمات

٢١- الزي المعروف لفتيات اقليمي الباسك والنافارو (المؤلف)
٢٢- La Gitanella وهي اللفظة الاسبانية التي تعرف بها الغجرية.

الاعـجـاب والمديح. رمت الجـمـيع بلحـاظ سـاخـرة ويدها فـوق شفتيها. كانت مثالاً لجسارة الغجرية وتبذلها. صدت نفسي عنها اول الامـر وتشـاغلت بسلسلتي لكنهـا - جـريا على عـادة بني جنسـهـا، وعلى سّنة الهـررة، تقـبل حين لا تدعى، وتتـمنع حين تطلب- دنت مني ووقفت امامي واخذت تحادثني بلكنة اندلسية:

- ايها الصديق، الا تعطيني هذه السلسلة لاعلق بها مفاتيح خزانتي؟

فقلت لها: «انها لابرة بندقيتي» فصاحت وهي تضحك:

- لابرة بندقيـتـه! آه، اذن فـحضـرته حـائك (دانتـيـل) مـادام بحاجة الي ابرة!.

قـهـقـه كـل الواقـفين. وشـعـرت بالدم يندفع الى وجنتي وعـبـثـاً حاولت ان اجد رداً. اما هي، فاستطردت تقول:

- لابأس ياحشاشة الروح! اصنع لي سبعة اذرع من الدانتيل الاسود لاخيط منها ملاءة. ياروحي ياصانع الابر!!

ثم تناولت الزهرة من زاوية فمها وفركتها بين اصبعين، فمرقت كالقذيفة واصابتني بين عيني تماماً، ثم قالت:

- اراك ياسنيور كمن اصيب برصاصة؟

غُم على عقلي ولم ادر ما اصنع بنفسي ووقفت منتصباً جامداً كالعود.

وبعـد ان ولجت باب المصنع، حـانت مني لفـتـة الى الزهرة السـاقطة بين قدمي -ولست ادري مـا دهاني- انحنيت والتقطتها